

اللغة العربية والتواصل الفكري

أ.د أحمد طالب

اللغة جزء لا يتجزأ من سيادة الأمة. فمن أهم التحديات التي تواجه اللغة العربية، ظاهرة العولمة، والتي تعني سرعة تملك اللغة الأقوى الهيمنة على اللغات الأخرى، التي تبدو ضعيفة، وبالأخص، لغات الأمم التي تعاني من مخلفات العهد الاستعماري، والتي لا تزال تخضع لضغوط شتى، في جميع المجالات، العلمية والثقافية وغيرها. ولو حاولنا معرفة تأثير العولمة على اللغة العربية، لنجد الانتشار لبعض الكلمات الأجنبية، على حساب اللغة العربية، والأدهى من ذلك، انتشار العبارات بلغات أجنبية، على واجهات المحلات التجارية وغيرها، كما أننا نلاحظ أن اللغة العربية يجرى إقصاؤها من الحياة اليومية بصفة مستمرة، لصالح اللغة الفرنسية في بعض الدول العربية أو الإنجليزية في دول عربية أخرى، بل حتى في بعض مراحل التعليم، وقد نتج عن ذلك شيوع الكثير من المظاهر الغربية، من ناحية الملبس أو المأكل وغير ذلك.

وإذا عدنا إلى كلمة لغة، فإن مصدرها من لغوت أي تكلمت، ويُقال: أصلها لغِيٌّ أو لغو، واللغو النطق يقال: هذه لغتهم التي يلغون بها أي ينطقون بها، وقال الكسائي: لغا في القول يلغى، وبعضهم يقول يلغُو، ولغى يلغي، لغة، ولغا يلغو لغوا أي تكلم. ويُقال فقد لغا أي فقد خاب. وألغيته أي خبيته. وفي الحديث: (من مس الحصى فقد لغا) أي تكلم. (١)

أن الصيغ اللغوية التي تخلق الأفكار، والمشاعر والعواطف، لا تتفصل مطلقاً عن مضمونها الفكري والعاطفي. إذ يقول مصطفى صادق الرافعي: « إن اللغة مظهر من مظاهر التاريخ، والتاريخ صفة الأمة. كيفما قلبت أمر اللغة - من حيث اتصالها بتاريخ الأمة واتصال الأمة بها - وجدتها الصفة الثابتة، التي لا تزول إلا بزوال الجنسية وانسلاخ الأمة عن تاريخها. » (٤) لقد حمل العرب الإسلام إلى العالم، وحملوا معه اللغة العربية لغة القرآن الكريم فاستعربت شعوب غرب آسيا، وشمال إفريقيا بالإسلام، فتركت لغاتها الأولى وآثرت لغة القرآن، أي أن حبههم للإسلام هو الذي عربهم، فهجروا ديناً إلى دين، وتركوا لغة واعتنقوا أخرى. لقد شارك الأعاجم الذين دخلوا

الشيء. وهذه الإشارة تتكون من اتحاد عنصرين، الدال والمدلول. فالدال هو الصورة الصوتية، التي تتطبع مباشرة في ذهن السامع. أو بعبارة أخرى الإدراك الشخصي للكلمة الصوتية. أما المدلول فهو الفكرة التي تقتنن بالدال في ذهن الشخص، إذ تعتبر اللغة، في نظر « دي سوسير » من أهم الموضوعات الاجتماعية، إذ « لا توجد إلا من خلال نوع من العقد المشاع بين أفراد المجموعة. » (٣) فأفراد مجتمع هم الذين يتفقون على ألفاظ معينة، للدلالة على أشياء، فتصبح بعد ذلك لغة التخاطب فيما بينهم. ولغة قيمة جوهرية كبرى، في حياة كل أمة، فهي الأداة التي تحمل الأفكار، وتنقل المفاهيم، فتقيم بذلك روابط الاتصال، بين أبناء الأمة الواحدة، إذ

واللغة عند ابن خلدون (هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة، فعل لساني ناشيء عن القصد بإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملكة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان). يتضمن هذا التعريف عدة مسائل هي: أن اللغة وسيلة اتصال اجتماعية وإنسانية، يملكها الناطق بها، ويُعبر بوساطتها عن آرائه واحتياجاته، ومتطلباته. كما أن اللغة نشاط إنساني عقلي إرادي، يتحقق في حدود عادة كلامية لسانية. وأنها تصبح ملكة لسانية، بطول وتكرار استعمالها. (٢) ويقول «فرديناند دي سوسير» إن «اللغة تتألف من نظام إشارات، تكون كل إشارة فيه لا توجد إلا في ذهن الإنسان. والعلاقة بين الإشارة والشيء، إنما هي علاقة اعتبارية، أي أنها اتفاق جماعي على ربط هذه الإشارة بذلك

الإسلام، في عبء شرح قواعد العربية وأدائها، فكانوا علماء النحو والصرف والبلاغة بفضولها الثلاثة: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع.

وقد مرت عصور طويلة كانت اللغة العربية، هي لغة الحضارة الأولى في العالم.

إذ تُعد من أقدم اللغات، التي ما تزال تتمتع بخصائصها من ألفاظ وتراكيب وصرف ونحو وأدب وخيال، كذلك باستطاعتها التعبير عن مدارك العلوم المختلفة. ونظراً لتمام القاموس العربي، وكمال الصرف والنحو، فإنها تعد أم مجموعة من اللغات تعرف باللغات أو اللهجات، التي نشأت في شبه جزيرة العرب.

فاللغة فيما يراه «عبد القاهر الجرجاني»، هي عبارة عن نظام من العلاقات المعنوية، التي تقرها الألفاظ اللغوية، بعد أن يدمج بعضها ببعض، في تركيب لغوي قائم على أساس الإسناد. وتمثل نظرية «النظم» مجمل جهود عبد القاهر الجرجاني، في تحليل التراكيب والنصوص اللغوية. والنظم هو نظم للمعاني، في حدود الجملة، وليس نظاماً للألفاظ والحروف والأصوات. (٥)

وقد تُعد الأمة العربية أمة بيان، والعمل فيها مقترن بالتعبير، فलغة في حياتها شأن كبير وقيمة أعظم. فهي الأداة التي نقلت الثقافة والعلوم المختلفة عبر القرون، وهي التي حملت الإسلام، وما انبثق عنه من حضارات وعلوم وثقافات، وهي الموحدة للعرب قديماً وحديثاً، فالأمة العربية تتحدث بلسان واحد، وتصوغ أفكارها

وقوانينها وعواطفها، في لغة واحدة على اختلاف الأقطار العربية وتعدد الدول الإسلامية.

واللغة العربية هي أداة الاتصال ونقطة الالتقاء بين العرب، وشعوب كثيرة في هذه الأرض، أخذت عن العرب جزءاً كبيراً، من ثقافتهم واشتركت معهم عدة المؤسسات في الكثير من المفاهيم والأفكار، إذ جعلت اللغة والكتاب العربي ركناً أساسياً في حياتهم العلمية.

إن الجانب اللغوي جانب أساسي، من جوانب حياتنا، واللغة مقوم من أهم مقومات حياتنا وكياننا، وهي الحاملة لثقافتنا ورسالتنا، والرابط الموحد بيننا والمكون لبنية تفكيرنا، والصلة بين أجيالنا، فاللغة العربية مرتبطة ارتباطاً مصيرياً وحتمياً بأبتنائها. فعندما كان العرب في عصورهم الذهبية، أغنت اللغة العربية العالم بالعلوم والمعارف، وأثبتت قدرتها على الانتشار والتوسع والاستيعاب والتواصل الفكري والإنساني. ولكن الفرد العربي يعيش اليوم أزمة هروب من الذات، وينغمس في حالة تعريب عن أصالته ووجوده، فانعكست الأزمة سلباً على الواقع اللغوي، فوصمت اللغة بالعجز والقصور عن مواكبة التطور العلمي والحضاري. فاللغة كما يراها البعض (ظاهرة سيكولوجية، اجتماعية، ثقافية، مكتسبة، لا صفة بيولوجية، ملازمة للفرد، تتألف من مجموعة رموز صوتية لغوية، اكتسبت عن طريق الاختبار معاني مقرررة في الذهن، وبهذا النظام الرمزي الصوتي تستطيع جماعة ما أن

تتفاهم وتتفاعل).

واللغة عند البعض الآخر، وسيلة التفاهم بين البشر يكتسبها الإنسان، من المحيط الذي يعيش فيه. فهي لا تولد بولادة الإنسان، ولا ترتبط بخصائصه البيولوجية، أو العرفية، بل هي ظاهرة تخضع للشروط، التي يعيشها المجتمع الإنساني. وهي تتعدم وتتلاشى بانعدام ذلك المجتمع. (٦)

ولعل من أفضل السبل لمعرفة شخصية أمتنا وخصائصها، من خلال اللغة، التي هي الأداة، التي سجلت منذ أبعد العهود أفكارنا وأحاسيسنا. فهي البيئة الفكرية، التي نعيش فيها، وحلقة الوصل، التي تربط العصر الماضي بالحاضر، والحاضر بالمستقبل.

فاللغة العربية، هي لغة تحمل رسالة إنسانية بمفاهيمها وأفكارها، إذ استطاعت أن تكون لغة واسعة، اشتركت فيها أمم شتى كان العرب نواتها الأساسية، والموجهين لسفينتها، اعتبروها جميعاً لغة حضارتهم وثقافتهم، فاستطاعت أن تكون لغة العلم والثقافة ومختلف فنون البناء والتشييد الحضاري والتقدم الفكري.

(٧)

ولعل الشيء الذي تتميز به اللغة العربية، أنها تملك أوسع مدرج صوتي، عرفته اللغات، حيث تتوزع مخارج الحروف بين الشفتين، إلى أقصى الحلق. وقد نجد في لغات أخرى غير العربية، حروف أكثر عدداً ولكن مخارجها محصورة في نطاق أضيق ومدرج أقصر.

وقد نجد أن مفهوم اللغة من بين

لعلاقة اللغة بالفكر يعتبر « بريجسون » هذا الفيلسوف أن الفكر بدون لغة ليس سوى كتلة عديمة الشكل غير متميزة، لا تحتوي على وحدات، فاللغة هي التي تضع تقسيمات وتصل بين الوحدات لكي تتضح الأفكار وتتمايز. وهكذا ليس هناك فكر سابق عن اللغة ومنفصل عنها. ومن أجل البرهنة على هذه الأطروحة قدم « بريجسون » مجموعة من الأمثلة وقد شبهها بنسمة ربح هبت على صهريج ماء فأدت إلى جعل سطح الماء يتموج، فهذه التموجات، هي التي تعطينا فكرة عن علاقة اللغة بالفكر، كما قدم لنا مثالا آخر، شبه فيه علاقة اللغة بالفكر بوجهي الورقة النقدية، فالوجه هو الفكر والمظهر هو اللغة، ولا يمكن أن نحدث قطعاً في وجه الورقة دون أن نقطع ظهرها في الوقت نفسه.

(١١)

واللغة عند « دي سوسير » هي نظام من الإشارات المغايرة، وأنها على المستوى الاجتماعي مقدرة في الكلام الإنساني متوفرة في الناس الأسوأ بالوراثة، والتي يتطلب تطويرها المثيرات البيئية الصحيحة.» (١٢) ويرى أيضاً، أنها نظام ذهني يتم بموجبه ربط العناصر اللغوية على المستوى الفونولوجي، أو الصريفي، أو النحوي. واللغة هي كل ما يمكن أن يدخل في نطاق النشاط اللغوي من رمز صوتي، أو كتابي، أو إشاري، أو اصطلاحي. فهي بذلك نظام من العلامات ذات الدلالة الاصطلاحية. ذهب «دي سوسير» إلى أن لغة جانب فردي، وآخر اجتماعي، ولا يمكن إدراك

تذكر والجهل نسيان. فإن الأفكار تكون موجودة في أعماق النفس، التي ينبغي فقط تذكرها بوساطة التأمل العقلي، وعليه فاللغة حسب أفلاطون لا تصنع الفكر، لأنه سابق في وجوده عليها وما ينبغي القيام به، هو تذكر من أجل معرفته، فالفكر هنا، صورة توجد في عالم المثل، أما اللغة فهي في العالم نفسه عالم الأوهام. (٨)

- موقف «ديكارت» :

إنطلاقاً من الكوجيطو « أنا أفكر إذا أنا موجود » يعتبر ديكارت الفكر جوهر روحي مستقل خاصة الوحيدة هي التفكير، أما اللغة باعتبارها «أصوات» فهي جوهر ممتدّ، ومن تم فاللغة والفكر حسب ديكارت، هما من طبيعتين متناقضتين. أي الفكر روحي وهي أي اللغة مادية، وبالتالي فالفكر مستقل عن اللغة ومنفصل عنها. (٩)

- موقف «هنري برجسون» :

يرى «هنري برجسون» أن لغة العقل، التي تقوم على التقسيم والقياس، تبقى عاجزة عن التعبير عن الفكر وإدراك الأبعاد النفسية، التي لا تدرك إلا بالحدس، خصوصاً ما يتعلق بالتجارب الروحية، حيث تبدو هذه التجارب أغنى وأوسع، من اللغة العادية، التي رغم أنها مكنت الإنسان من السيطرة على الطبيعة، وتحريكه من سلطة الأشياء، فإنها تبقى في نطاق التجارب السطحية في حالات الوعي والشعور. (١٠)

على عكس من التصور التقريبي

أهم المفاهيم، التي انشغلت بها الفلسفة المعاصرة واللسانيات، وكذلك بعض العلوم الإنسانية، مثل علم الاجتماع اللغوي وعلم النفس اللغوي.

وقد نجد موقف «ديكارت» أنه لا يخرج عن هذه التساؤلات خارج إطار فلسفية العقلانية، التي تجعل من العقل مبدأ تصوره إشكالية اللغة. وبناء عليه، يؤكد ديكارت أن اللغة خاصة تقتصر على الإنسان، ولا وجود للغة بهذا المعنى لدى الحيوان، ويفسر ديكارت ذلك، أي قدرة الإنسان على الكلام بامتلاكه العقل، مهما كانت درجة هذا العقل من البساطة، حتى ولو كان هذا الإنسان يفتر لجهاز النطق، فإنه قادر على التعبير والتواصل، كما هو الحال عند الصم والبكم.

وإذا عدنا إلى دراسة طبيعة العلاقة بين اللغة والفكر من جهة والسلطة من جهة ثانية، ثم وظائف اللغة، وإذا علمنا أيضاً أن لكل من اللغة والفكر طبيعتهما الخاصة، فكيف إذن يمكن الحديث عن العلاقة بينهما؟ بمعنى آخر ما هي طبيعة العلاقة بين اللغة والفكر؟ هل هما منفصلان أم متصلان؟ هل الفكر سابق عن اللغة فهو مستقل عنها؟ أم أن اللغة هي أساسا الفكر ومنتهج؟

ولعل الأطروحة الميتافيزيقية تقول بأسبقية الفكر عن اللغة، واستقلاله عنها ويتبناها كل من «أفلاطون» - «ديكارت» - «برجسون».

- موقف «أفلاطون» :

إذا كانت المعرفة حسب أفلاطون

أحد دون الآخر. (١٣)

فإذا كانت اللغة أداة للتعبير عن الفكر، فهي أيضاً عنصر للتواصل الاجتماعي، فلا مجتمع بدون لغة، كما أنه ليس هناك مجتمع بدون تواصل. وتعتبر اللغة في النظرية التواصلية لـ «جاكوبسون» أداة لتبليغ للمعرفة والأفكار والمشاعر والمعلومات في إطار من الوضوح والشفافية بشرط توفر العناصر التالية:- السياق - المرسل - الرسالة - المرسل إليه. وفي بعض الأحيان، لا يمنع هذا من ابتكار بعض الناس ألفاظا وكلمات أو اقتباس من بعض اللغات أو تداخل لغات العالم، وهذا في العصر الحاضر. (١٤)

وهناك من اعتقد أن اللغة قد نشأت كمجموعة من الأصوات والآهات، التي تصاحبها قيام مجموعة من الناس بمجهود عضلي شاق، كتلك التي تصدر عن مجموعة الصيادين، عندما يستخرجون شبابهم من النهر.

فاللغة وسيلة لتواصل العواطف والأفكار والرغبات والقضايا، عن طريق نظام من الرموز الصوتية. فهي أداة اتصال وفق خبرة الإنسان بصورة معينة، في كل تجمع إنساني، ويؤدي هذا، إلى خلق وحدات صوتية لها محتوى دلالي. فاللغة وسيلة للتعبير عن الأفكار الذهنية المجردة، يتوارثها الخلف عن السلف، في مجتمع إنساني معين، وتتسم بالإزدواجية على المستويين الصوتي، والتركيبي. فاللغة في نظر «رولات بارت» وظيفة التبليغ والتواصل. (١٥)

الفكر هو مسألة استخدام العقل في إنتاج المفاهيم عن شيء معين، وإصدار الأحكام، واتخاذ المواقف. فهو عملية ذهنية استدلالية تستدعي قدرات معرفية عالية للربط بين القضايا والأحداث الواقعية، في مجتمع معين، والمفاهيم المكونة عنها. ويتطلب الفكر كفاءة لغوية لصياغته، والتعبير عنه، وتناقله بين أفراد مجتمع معين، أو جنس بشري خاص. والتفكير سمة من السمات، التي يتميز بها الإنسان عن غيره من الكائنات الأخرى، فليس هناك دين أعطى العقل والتفكير مساحة كبيرة من الاهتمام مثل دين الإسلام وعندما يخاطب القرآن الكريم المسلم فإنه يركز على عقله ووعيه وتفكيره، ولأهمية التفكير للإنسان المسلم وردت كلمة تفكير أو مرادفاتها (يتفكرون- يبصرون- يعقلون- يتذكرون... إلخ). (١٦)

يعتقد « نعوم تشومسكي» أن الإنسان وهب عدة قدرات محددة يطلق عليها اسم «العقل» وهذا العقل، أو هذه القدرات تقوم بدور حاسم في اكتسابنا للمعرفة، وتمكننا من القيام بدور مستقل، عن أي عامل خارجي في البيئة المحيطة بنا. وقد تساعد هذه النظرة « تشومسكي» على ربط العلاقة بين اللغة والعقل، أي على توضيح ما أسماه بالقواعد الكلية، التي يشترك فيها عدد من اللغات، وعلى تطبيق القواعد التحولية، في تحويل التركيب الباطني، إلى التركيب السطحي، وعلى بيان مبادئ الربط والعمل في التراكيب

اللغوية. (١٧)

وفي الأخير نستنتج ما يلي: أن تعريف اللغة لدى القدامى يتشابه مع تعريف اللغة عند المحدثين من العرب والغربيين من الناحية الصوتية والوظيفية. - وأن معظم التعريفات الحديثة للغة مأخوذة من تعريف ابن جني، أو فرع منه. - وأن التصريح بين اللغة والفكر من الأمور الصعبة - وقد يعتمد الفكر الإسلامي أولاً وأخيراً على توطيد وترسيخ العقيدة والمبادئ الإسلامية الأساسية، المستنبطة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. لأن اللغة والفكر ذات علاقة وثيقة قوية لا يمكن التفريق بينهما.

قائمة المراجع:

- ١- نايف خرما «أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة» المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط٢، ١٩٧٩م.
- ٢- ابن خلدون «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر».
- ٣- Saussure << cours de linguistique générale >> Payot، ١٩٦٤.
- ٤- مصطفى صادق الرافعي «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية»
- ٥- إبراهيم عبد الله رفيدة «بحوث في اللغة والفكر» منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ٢٠٠٥ م.
- ٦- محمد علي النجار «أبو الفتح عثمان بن جني الخصائص» عالم الكتب،

- د.ت.، بيروت.
- ٧- التويجري عبد العزيز بن عثمان
«مستقبل اللغة العربية» منشورات
الإيسيسكو، الرباط، ٢٠٠٤م.
- ٨- « جمهورية أفلاطون » ترجمة حنا
خياز، دار القلم، ط٢، بيروت.
- ٩- رينيه ديكرت « تأملات في الفلسفة
الأولى»-١٦٤١م
- ١٠- هنري برجسون: «الأعمال الفلسفية
الكاملة»
- ١١- المرجع نفسه.
- Saussure << cours de linguistique
général>> Payot ، ١٩٦٤
- ١٢ -
- ١٣- المرجع نفسه.
- ١٤- أمين محمد فاخر «دراسات لغوية»
-الخصائص-المزهر، د.ط..
- R. Bathes << le plaisir du texte>>
seuil.paris، ١٩٧٢. ١٥ -
- ١٦ - عاصم شحاذاة علي «اللسانيات
المعاصرة للدارسين في الجامعات
الماليزية» الجامعة الإسلامية،
ماليزيا: ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٩م .
- ١٧- نعيم تشومسكي «المعرفة اللغوية،
طبيعتها وأصولها واستخداماتها»،
ترجمة محمد فتيح، دار الفكر
العربي، د.ت.